

سعى نحو تطوير السريانية في حياته فخلدته في مماته روبين بيت شموئيل

ثلاث ساعات ثمينة، اجزم انها سوف تبقى في الذاكرة الى امد بعيد، قضيتها مع الملفونو الراحل ابروهوم نورو في شقته الحلبية وبين رفوف مكتبته العامرة. كان ذلك مساء يوم ٢٧ تشرين الثاني من العام الماضي صحبة الشخصية القومية المعروفة، صديق الهم الآشوري الملفونو كابي موشي. كان جل وقود هذه السويغات الثلاث اللغة السريانية وعظمتها، تأثيرات ثقافتها على معظم ثقافات الشعوب الشرقاوسطية، والوعي القومي الآشوري الحديث وبداياته الخربوتية والدياربكرية، وغيرها من مواضيع الساعة وليس آخرها مسألة الحكم الذاتي لابناء شعبنا في العراق والتأكيد بانه بات السبيل الوحيد لصيانة خصوصياتنا القومية والدينية واللغوية والجغرافية المتبقية لنا في أرض وجودنا الأثني المتواصل عبر آلاف السنين، وخصوصاً بعد بوادر تأسيس عراق فدرالي جديد مؤهل لقبول الاخر المختلف.

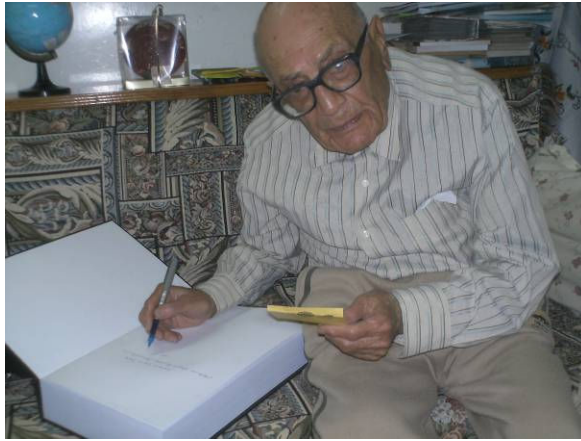


الفقيه ابروهوم نورو يتوسط الملفونو كابي موشي وكاتب

المقال روبين بيت شموئيل في مكتبته بحلب – سوريا في ٢٧/١١/٢٠٠٨

لا يخفى على احد ممن تشرف بمعرفة الفقيه ابروهوم نورو بان النقاش معه يمضي سريعاً نظراً لانجازاته اللغوية المتعددة المدونة وغير المدونة من جهة، ومن الجهة الاخرى مشاريعه وتطلعاته التي لا نهاية لها في وعيه القومي المبكر الذي ينسبه وفاءً الى الرائد نعوم فائق خصوصاً. لم الحظ آثار التعب عليه فكان كعادته نشطاً وثاباً يتحرك في كل الاتجاهات ومن كل الاتجاهات، فتارة يقفز على درج صغير ليلتقط كتاباً من الرفوف العليا من مكتبته (او قل شقته لانها كانت كلها مكتبة!) وتارة اخرى يرمي الدرج جانباً ليسجد امام خزانة كتب تحتية وكأنه يصلي امام مذبح مقدس ليخطف مخطوطة ورد ذكرها في سياق النقاش او معلومة يريد إثباتها او دحضها. هذا الى

درجة كنت قد نسيت الهدف الذي كلفت من اجله من قبل دار المشرق الثقافية بان ابحث معه مسألة شراء مكتبته ان كان ثمة رأي ورغبة شخصية في ذلك الاتجاه اذ ان جذور الفكرة كانت تعود الى مؤتمر اللغة السريانية الثالث الذي عقدناه في دهوك في نهاية ٢٠٠٧، وتبلورت اكثر في مؤتمر اللغة السريانية الرابع الذي عقد في دير الزعفران بتركيا في تشرين الاول من عام ٢٠٠٨، حيث كان المرحوم واحداً من المع مشاركيه وإن وصل قبيل ساعات من موعد تقديم مساهمته حسب منهاج المؤتمر. عندما طرحت موضوع المكتبة بخجل وتردد لتيقني من صعوبة الموقف، بادرنى في الحال : " ساموت ان لم ار كتبي ورفوف مكتبتي"، ادركت ان مهمتي باعت بالفشل الذريع واختلست نظرة الى عيون الاخ كابي، كان يشاطرنى الاحساس ذاته. والجدير بالذكر ان مكتبة الملفونو ابروهوم نورو تعد واحدة من أكبر المكتبات الشخصية لابناء قومنا في المنطقة، فهي مكتبة ضخمة يناهز عدد كتبها كما قال لي اربعة آلاف كتاباً: باللغات السريانية والعربية والتركية والانكليزية والفرنسية والالمانية، تتوزع بين اللغة والتاريخ والدين والطب ووو ، وعدد معتبر من القواميس السريانية، بينها بعض الطباعات النادرة والمفقودة.



المرحوم يهدي نسخة قاموس المطران أوجين منا المخطوط (عربي – سرياني) الى دار المشرق الثقافية في دهوك (النص في يسار الصورة)

الا ان الانجاز الالم الذي حققته في رحلتي الحلبية التشرينية والذي سيبقى هو الاخر في الذاكرة الى حين، هو تمكني من إقناع المرحوم بان يهدي الى دارنا (دار المشرق الثقافية في دهوك) نسخة من المخطوطة الوحيدة حتى الان (النسخة الاصلية لا زالت في مكتبة المرحوم) لقاموس اوجين منا بخط يد المطران الشهيد. وهو قاموس (عربي – سرياني)، أي غير المتداول المعروف (سرياني – عربي) في طبعتين الاولى عام ١٩٠٠ في الموصل بهمة الالباء الدومنيكان، والثانية عام ١٩٧٥ في بيروت بهمة المطران (ثم البطريرك) روفائيل بيداويز. القاموس المخطوط هو في جزئه الثاني فقط أي من حرف الفاء (ليس كله) العربي حتى الياء، اما الجزء الاول فلا زال مفقوداً ونأمل ان يظهر يوماً ما، وهنا نهيب بكل النشامى الذين يمتلكون اية معلومة عن

الجزء الاول من القاموس ان يحيطونا علماً. وقد روى لي الفقيد نورو بحضور الاخ كابي وشقيقه أبكر قصة شرائه لهذه النسخة الفريدة كما يلي: " سمعت ان القاموس هو بحوزة ابن اخ المطران اوجين منا الذي يقيم في بيروت فزرتة في بيته واعلمني فعلاً بوجود الجزء الثاني من قاموس عمه عنده ويود ان يبيعه لكن بشرط واحد فقط ان لا يكون المشتري كلدانياً".

وطلبت من الفقيد شخصياً ان يكتب الإهداء الى دار المشرق بخط يده والصورة المرفقة شاهدة على ذلك. وعليه فان القاموس يعتبر اليوم من مقتنيات مكتبة دار المشرق الثقافية لكن قرار التصرف به ومسألة طبعه مثلاً فهو مناط بثلاث جهات لاتخاذها حسب وجهة نظري وهي:

١. عائلته (زوجته وإخوته)

٢. كنيسته التي انتمى اليها بكل قوة وتفان (الكنيسة السريانية الارثوذكسية في حلب)

٣. اصدقائه من عشاق السريانية من ابناء قومه او من غير قومه الذين اصطلح في تسميتهم بالمتسرينين.

وانا منهمك بكتابة هذا المقال حسب طلب صديقي د. سعدي المالح، راودتني فكرة ان اجول مرة اخرى في مصنف المرحوم ابروهوم نورو القيم " تولدوثو سورويوثو"، أي المصطلحات السريانية المستحدثة، وهو نتاج جهد عملاق وسنين طويلة من البحث والدراسة والاتصالات مع اصحاب الشأن كان قد أصدره عام ١٩٩٧. تصفحته صفحة تلو اخرى لاكتشف ثانياً قيمة المنجز اللغوي لهذا الرجل والمخ طريفته العلمية والعملية في ابتكار وصياغة طرق مستحدثة لا تخرج قطعاً عن فقه اللغة السريانية وسحنتها وقواعدها واصولها التي نسجها يراع فطاحل هذا المكون القومي. على سبيل المثال كم هو جميل، أصيل، وبلغ مصطلح متسرين عوض مستشرق وأزعم ان سر جماله يكمن في سريانيته: **ܡܝܚܘܕܢܘܨܟܐ ܡܝܠܘܚܘܕܢܘܨܟܐ ܡܝܠܘܚܘܕܢܘܨܟܐ**.

حمل هذا الانسان الرقيق هموم اللغة كلها وواصل عبء تعليمها لعقود عديدة ولاجيال عدة الى حد شكلت له اللغة السريانية وضرورة عصرنتها الجزء الاكبر من هممه الحياتي وبالتالي ملامحه اليومية، فكان من النادر ان تراه بدون كتاب او كراس او اوراق مكتوبة بالسريانية وعن السريانية وكانت حقيبته اليدوية التي كانت تشكل ربما عشر وزنه الفيزيائي لا تفارقه ابداً. ربما كان نورو من أبرز علماء السريانية المحدثين في تاريخنا المعاصر من الذين حملوا كنوز اللغة الام على اكتافه وراح يجوب بها المدن والدول والاديرة والمؤتمرات تاركاً في كل محطة أثره وإنفعاله وغيرته على اللغة واهلها على السواء.

يقال انه وهو يعلم السريانية في بيروت سمع مرة صوت طالب يقول: ما جدوى معرفة هذه اللغة الميتة؟ أدار نورو وجهه على طلابه مستدركاً: " ليست اللغة السريانية ميتة بل ان السرياني الذي لا يجيدها ولا ينطقها ولا يحترمها هو الميت! ".¹

كبر سنه لم يتمكن من شل حركته وتحجيم قدرته وإسكات صوته الجهوري كلما راوده الحنين لتراث السريانية ورائحتها الفواحة المنبعثة من امهات الكتب والمخطوطات وفي كل المكتبات المهمة في العالم، فكان يزحف نحو السريانية وإرثها الثر بدمه وعيونه وعشقه المستديم لكل حلقاتها. تولدوثنو وسولاقا اللذان يندرجان بتقدير في خانة الاله في منجزه اللغوي، يشكلان بحق بعضاً من حلمه الازلي في إنبعاث السريانية وتطويرها والعودة بها الى ايام تألقها وكبرياتها وبصماتها في هوية المنطقة بأسرها.



أبصر النور علم ١٩٢٣ في مدينة اورهاي منجم السريانية الكلاسيكية حيث غدت لهجتها منذ ان اخضعت للتدوين في القرن الثالث الميلادي اللغة الليتورجية لكنيسة المشرق ذات الهوية الاثنية الواحدة وان تفرعت جغرافياً وانشطرت لاهوتياً منذ القرن الخامس الميلادي ولا تزال تقبل القسمة على أي رقم!. كان عمر نورو سنة واحدة عندما ترك سريان اورهاي والى الابد مدينتهم الرهاوية المباركة وهاجروا الى حلب وسكنوا في حي اتخذ تسميته من الهوية القومية واللغوية لساكينه " حي السريان والذي توسع في السنين الاخيرة الى حي السريان القديم وحي السريان الحديث". اورهاي مسقط رأس نورو معروفة في تاريخ الحضارة الانسانية، فيكفيها فخراً انها احتضنت واحدة من اقدم جامعات العالم القديم والتي عرفت بعلو كعبها العلمي ورصانة منهجها ومستوى ملافتها الفلاسفة الافذاذ.



¹ اقتبست هذه المعلومة من صديقي وقريبي فوزي توما زيباري (شقيق الشهيد الخالد يوسف توما) الذي التقيته في مدينة دهوك في مطلع آذار الجاري والذي كان يضيف الفقيه مراراً في شقته في العاصمة السويدية ستوكهولم.

تابع دراسته المنهجية في مدارس حلب الرسمية حتى عام ١٩٤٤، اما دراسته الخاصة في اللغة الام وآدابها فقد بدأها بجهوده ومتابعته الشخصية محتكاً باغلب الضليعين بها حيثما تيسر له ان يغرف من علمهم مثل يوحنا دولباني وعبد المسيح قره باش ودنحو غطاس وبولص بهنام وبولص بيداري واسطيفان بلو وغيرهم، ثم واكب اتصالاته مع اغلب المستشرقين، عاشقي السريانية وإرثها الادبي وعلى رأسهم المتسرين الانكليزي سبيستيان بروك.

ابروهوم نورو .. هذا الكائن الأشوري السرياني القابع في كتلة آدمية صغيرة لا يزيد وزنها في افضل الظروف عن خمسين كيلوغراماً، شاهدهته لأول مرة في النادي الثقافي الآثوري عام ١٩٧٤ او ١٩٧٥ بعد ان انتميت اليه اثر تمكني من تحقيق البند المتميز في شروط عضويته عندما انهيت الاعدادية والتحقت بكلية الهندسة في جامعة بغداد. اما بدء علاقتي الشخصية به وبعائلته الكريمة فتعود الى ايام مؤتمر بغداد العام الذي عقد في خريف ٢٠٠٣ عندما حل ضيفاً عزيزاً على عائلتي الصغيرة وفي بيتي الصغير. لا زال اولادي يتذكرون ذلك الرجل النحيف الناعم الذي كان يمارس رياضته الصباحية في حديقة دارى ويتذكرون ذلك الهيكل البشري الذي كان يتكور على ذاته فوق إحدى ارائك غرفة الخطار كما يسميها العراقيون ممارساً رياضته المحببة اللوغا. لم اكن قادراً على اقناع اولادي في تسائلهم: بابا ماذا يعمل الرجل، ولماذا ينقطع عن الكلام والحركة لمدة ليست بقصيرة؟ أجزم، انها كانت تساؤلات مشروعة لفضول بريء. في دارى تناولنا شؤون الثقافة واللغة وما بينهما وكان بين الحين والآخر ينسل الى مكتبتي الفتية مقارنة بمكتبته الا انه كان يلتقط كتاباً من هنا وهناك وخصوصاً الكتب المؤلفة باللغة الام التي كانت تصلني معظمها وأحدثها عن طريق اشقائي في امريكا واصدقائي في المعمورة وأخص بالذكر رابي دانيال رئيس محرري القسم الآثوري في مجلة الدراسات الاكاديمية الآشورية واللغوي نمرود سيمونو والمرحوم عوديشو دبرزانا والخطاط عيسى بنيامين والقاص يوثيل بابا والقس نينوس مقدونيا وغيرهم.

أخيراً هل سيكون ابروهوم نورو آخر لغويي السريانية التي انجبتهم الرها؟ ثم هل حقاً يموت رجل بهذا القدر من الانجاز والحضور؟ هل يموت الانسان الذي كان في اللغة يتحول إلى طوفان جارف وصرخة مدوية يبقى صداها يتردد في المدى المجهول حاملاً لوعته وحزنه الابدي على تشتت شعبه وخفوت لمعان لغته؟. نم قرير العين (أه! لا تستطيع العربية إنكار تأثير السريانية عليها بل وجودها فيه)، فهذا التركيب اللغوي سرياني محض جاء من: ، بالاضافة المباشرة او جزم: ، أي بدون أداة الاضافة في السريانية، حرف (الدالـث). نم قرير العين يا ابروهوم نورو فالسريانية خلدتك في موتك كما كافحت في تخليدها في حياتك،

وروحك الطاهرة ستلتقي الكثير ممن يعشقون السريانية مثلك وحتماً ستتكلم معهم بالسريانية!. هل سيكون المرحوم ابروهوم نورو من الذين دعيتهم في مناسبة سابقة: اباؤنا يرقدون تحت الارض من أجل ضمان بقائنا فوق الارض!؟.